الآخر اليهودي في رواية "في قلبي أنثى عبرية" لخولة حمدي

أد: عيسى بريهمات - أ. ماجدة صادقي

جامعة الأغواط - الجزائر

كلما ارتقى وعينا السردي ارتقينا إلى فهم
ذواتنا في علاقتها بالذوات الأخرى.

سعيد يقطين

مقدمة

يستمد النتاج الروائي روحه من عمق المجتمع الذي يولد منه، وبالتالي فإن الروائي حينما يبادر إلى كتابة رواية أو قصة فإنه لا ينطلق من فراغ، بل يكون محملا بالزاد المعرفي والانعكاس الثقافي والاجتماعي والسياسي الذي يوجه رؤيته الأدبية ليعيد تشكيلها ونحتها بين دفتي رواية بأبعادها الحديثة والمعاصرة.

والروائي، المعاصر عموما والعربي خصوصا، يعيش عصر المتناقضات والاحياز المفارقة بين الذات والآخر، غير ان الثقافة الغربية تمكنت من عبور هذا المنعطف لفسحة التآلف والتعايش مع الآخر بعد سلسلة الحروب النووية والاستخباراتية والباردة، والصراعات التي خاضتها على كل الأصعدة، أما العالم العربي فتكتنفه حالة من الصراع الداخلي لاصطدامه بالحضارة الغربية التي تتعارض كليا مع العقيدة وعادات المجتمع، ولا يقتصر اصطدامنا بالآخر على الغرب المسيحي، بل ويتعدى هذا الصراع بين أبناء الحضارات المختلفة التي تعاقبت على الأراضي العربية وما خلفته من مفاهيم تاريخية وقومية رغم مزامنتها لديانات سماوية سمحة توالى نزولها على أنبياء الله الكنعانيين

والعرب، وكان الدين الإسلامي خاتم هذه الديانات وكان نزوله إيذانا بنسخ الديانات السابقة وانصهارها تحت ظل شهادة التوحيد.

ومع توالي الأحداث التاريخية وسقوط الخلافة الإسلامية وتفتت الولايات التابعة لها ودخول الاستعمار الغربي الأراضي العربية ظهرت مفاهيم تحث وتحرض على تمسك كل شعب بعرقه وديانته وخلفيته التاريخية وتبلورت منظومات سياسية ودينية متطرفة لدى الفصائل اليهودية والمسيحية وحتى الإسلامية ليعيش الصراع الديني والحضاري أوجَه في العصر الحديث إلى غاية يومنا هذا.

وقد انعكست الأوضاع الأنفة الذكر على الأدب وعلى الرواية خصوصا باعتبارها ملحمة العصر الحديث، فظهرت روايات تعبر عن الانبهار بالآخر (أوربا) تبنت رؤية الذات للآخر كرواية الحي اللاتيني لـ"سهيل ادريس" ورواية عصفور من الشرق لـ"توفيق الحكيم" ومع ظهور التيارات الفكرية الحديثة تطور مفهوم الآخر والغيرية إلى جملة من المجالات المعرفية والاصطلاحات النقدية مثل: النسوية وخطاب ما بعد الاستعمار والجنوسة والنقد الثقافي وأدب الأقليات العرقية والسود.

وعلى رأس الروايات العربية التي كرست خطاب ما بعد الاستعمارية عبر الذات والأخر نجد رائعة الطيب صالح "موسم الهجرة إلى الشمال" محققة بصمة فارقة في النتاج الروائي العربي والذي أفردت له المطابع والمجلات حيزا كبيرا من الاشتغال والدراسة وأطلقوا عليه اسم عبقري الرواية العربية[1] وهذا بسبب الرؤية الجديدة التي قدمها لنا الكاتب في شخصية "مصطفى سعيد" الذي يمثل على حد تعبير الروائي كل شخص عربي. هذا العربي الذي تتنازعه الهوية بكل تاريخها المجيد والعاثر وما يناقض هذه الهوية بسبب الآخر الذي استطاع أن يتغلغل إلى كينونة الذات ووجدانها محققا شعورا يتضاد بين الجذب والنفور او الانسلاخ والانتقام والتخبط بين هذين النقيضين حد الغرق والموت.

أما على صعيد الأدب المغاربي "فقد تمثل الأنا والآخر في الروايات الواقعية والسياسية كرواية الأرض والدم لـ"مولود فرعون"، ونلفيه كذلك في روايات اللغة الشعرية الحديثة الراقية كرواية "ذاكرة الجسد" والتي تطرح الأنا ممثلة في شخصية "خالد بن طوبال" وما تتولد عن هاته الشخصية من صراع مع الآخر إثر الهوة الحضارية التي يخلفها الاستعمار الفرنسي بينه وبين الجزائر التي خرجت لتوها من أسوأ حقبة مرت عليها، و في المغرب نجد أعمال "عبد الله العروي" الذي طرح

علاقة الذات بالآخر وكذا رواية العودة لـ"ميمون حسني" الذي يجسد من خلالها جدلية الأنا والآخر بين المغربي المسلم وبين الآخر ممثلا في الغربي المسيحي وما ينجم عن هذه المفارقة من صراع.

وفي هذا السياق صدرت في تونس روايات معاصرة لم تتردد في النسج على منوال الجزائر والمغرب من حيث تناول الآخر والطرح، ولكنها مختلفة من حيث المضمون حيث عالجت الروايات التونسية وبشيء من الجرأة إبداعية صورة اليهودي بالنسبة للذات التونسية وهذا نظرا لأسباب تاريخية عملت على خلق فئة كبيرة من اليهود داخل الوطن التونسي العربي الشمال افريقي، ومن بين الروايات التي تناولت اليهودي في الادب الروائي التونسي نجد رواية روائح المدينة لـ"حسين الواد".

«إن استلهام النص الروائي المغاربي، للتاريخ يعود في الأصل، إلى حتمية الشعور بالانتماء إلى السلف، وفي هذا الصدد كانت الحاجة ماسة للبحث في ثنايا الماضي بغرض التعرف على هوية الذات، وعليه فإن المحاولات الروائية الجادة التي تسعى باستمرار إلى توظيف المادة التاريخية، تهدف إلى ربط الحاضر بالماضي، وقراءة الحاضر في ضوء الماضي، حيث ينبغي استحضار التاريخ لنؤكد على وجود ذواتنا »[2]

ومن المهم أن أذكر هاهنا أن موضوعنا يتناول رواية تونسية معاصرة تبلورت عبرها ثنائية الأنا والآخر وهي رواية "في قلبي أنثى عبرية " لخوله حمدي، وتعالج هذه الرواية إشكال الهوية وصراع الذات مع الآخر اليهودي، واكتشاف الأنا العربية لنظيرها العبري عبر الولوج لعالمه واقتحامه أدبيا.

تيمة الهوية عنوانا :

وبغير ما جهد كبير نلاحظ مدى اهتمام المثقفين والباحثين العرب بظاهرة الاستشراق الأدبي والفكري. في هذا المضمار المكتبة العربية تحفل بالكثير من المؤلفات والموسوعات الفلسفة والأدبية والفكرية والنفسية إلا أنها تهمل الاستشراف في أبعاده الصورية هذا «الاستشراف التصويري ظل ضربا من المسكوت عنه، خاصة أن الثقافة العربية الحديثة ثقافة الكلمة التي تفكر اللغة والنص وتتغاضى منذ بدايات القرن العشرين عن طرق موضوعات الصورة والتصور»[3]

و الرواية التي بين أيدينا هي رواية تونسية معاصرة تصطحب معها خصائص الاستشراق من حيث التوغل في الفضاء الموازي للفضاء العربي ألا وهو الفضاء العبري وتعلنه عنوانا ملتفا حول الآخر العبري ومشكلا نواة الحكاية، حيث يطالعنا العنوان بجملة صريحة لا تعتريها دلالات مكثفة أو طاغية بل تشكل خبرا مختزلا لما تدور حوله وقائع الرواية، وجاء ضمير المتكلم لرسم حدوده ومفصحا عما يسكن داخل قلبه ومبددا ما هو متوقع من كراهية الآخر إلى إسكانه في القلب، "في قلبي أنثى عبرية" دلالة صريحة عن الاختلاف الاثني والديني والعرقي بين صاحب القلب (الأنا) وبين هذه الفتاة العبرية (الآخر)، أو بين الفتاة العبرية وبين نفسها بعد أن تتحول إلى مسلمة.

والسؤال الذي يتبادر إلينا هنا هو كيف تمظهرت الذات والآخر في الرواية التونسية عموما وفي الروايتين خصوصا؟ وفي تناولها لجدلية الأنا والآخر، هل تمكنت الكاتبة من إضاءة الواقع المظلم والتألق في سرد الآخر؟ وإلى أي مدى شكلت شخصيات الرواية رمزية الصراع الحضاري مع الآخر ؟

ملخص متن الرواية :

توزع "خولة حمدي" سردها الروائي عبر أمكنة ثلاث: **تونس ولبنان وفرنسا** من خلال صراعات اجتماعية ودينية وحضارية بثتها الكاتبة عبر ثلاثة أنماط لشخصيات يهودية ومسلمة ومسيحية وهي شخصيات رئيسية في الرواية ذات أبعاد مكانية وتاريخية وحضارية ودينية وسياسية.

تبتدئ الرواية بنبذة تاريخية تبرز فيها قِدَم تواجد اليهود في تونس، وتؤرخ قدومهم لهذا البلد بأزيد من 2500 سنة عندما غزا" نبوخذ نصر "ملك بابل القدس وطرد اليهود وحرق معبدهم، فهاجروا إلى تونس وأسسوا أقدم كنيس يهودي بإفريقيا في جزيرة جربة .. في هذه الجزيرة لا زال إلى اليوم يعيش حوالي 2000 يهودي منهم عائلة جاكوب الذي وجد نفسه مضطرا للعناية ب(ريما) ابنة جارته المسلمة المتوفية التي أوصته برعايتها وحضانتها يوم احتضارها، تنشأ ريما وسط هذه الأسرة اليهودية ويسهر جاكوب اليهودي على تنفيذ الوصية وتنشئة ريما نشأة إسلامية، يصطحبها كل يوم للمسجد لتتعلم أحكام الإسلام رغم امتعاض زوجته (تانيا) المتزمتة والمواظبة على حراسة أسرتها اليهودية من أفكار الاسلام الذي تمثله ريما رغم صغر سنها و براءتها.

وليس بعيد عن هذه العائلة، كان هناك "سالم "الرجل المسلم الذي انفصل عن زوجته اليهودية (سونيا) والدة ابنتيه (ندى ودانا)وطلقها فتزوجت مرة أخرى من رجل دين مسيحي أرميني (جورج) وأخذت معها ابنتيها (ندى ودانا) إلى جنوب لبنان.

كان جاكوب اليهودي بمكانة الأب لريما المسلمة، وكذلك جورج المسيحي أبا في علاقته بندى ودانا اليهوديتين. ولكن كلما كبرت ريما في السن عُمقت الفجوة بينها وبين زوجة جاكوب (تانيا)، حتى اختارت ريما الصغيرة ارتداء الحجاب، فلم يكن أمام تانيا إلا طردها من البيت خوفا على أولادها، ووجد عائلها العطوف جاكوب مخرجا لأزمته بإرسال ريما لتعيش مع أخته راشيل في قانا جنوب لبنان، وهكذا يتوازى تواجد فتيات تونس دانا وندى اليهوديتان وريما المسلمة في لبنان ويتأقلمن طوعا أو كراهية مع هذا المكان الجديد الذي يعج بالصراع السياسي بين المقاومة الإسلامية والكيان الصهيوني جنوب لبنان .

ومن بين هؤلاء المقاومين الاسلاميين (أحمد) الشاب المسلم الذي يصاب بشظية أثناء تنفيذه إحدى العمليات ضد الصهاينة وبعد أن ينفجر إطار سيارته التي فر بها مع صديقه يدق باب أسرة يهودية ويطلب المساعدة فتلبي (ندى) نداء النجدة وتأويه مع صديقه في خلفية المنزل وتسعفه بمساعدة ميشال المسيحي ابن زوج والدتها القس(جورج) ويعجب أحمد بمواقف ندى النبيلة ومحياها الطاهر البريء رغم أنها عبرية، ومع مرور الأيام وبعد محاولات تتطور العلاقة ويتقدم أحمد لخطبة ندى، تتخوف العائلتان، عائلة ندى اليهودية وعائلة أحمد المسلمة خوفا من مستقبل العلاقة والأبناء وهذا لتمسك ندى بيهوديتها وأحمد بإسلامه.

وفي تلك الأثناء تتعرض ريما الصغيرة التونسية للعنف من طرف زوج العمة راشيل أخت جاكوب فتضطر لاستبعادها من منزلها وإرسالها إلى عائلة ندى اليهودية لصلة الصداقة بين راشيل ووالدة ندى اليهودية، وهنا تتغير الأحداث جذريا من مكوث الفتاة المسلمة الملتزمة إلى جوار بطلة الرواية ندى وتمثل هذه المدة القصيرة عصب الأحداث في تقريب العلاقة بين أحمد وندى وتلعب ريما الصغيرة حلقة الوصل بينهما بتعليم ندى بعض المفاهيم والعبادات الاسلامية والحكمة منها بأسلوب طفولي عفوي ولكنها تتحول إلى مجرد خادمة من قبل والدة ندى المتعصبة ليهوديتها وغطرستها ورغم تعاطف ندى معها الا ان هذه الصغيرة تُستشهد في يوم ماطر على يد ميلشيات الصهاينة ويؤثر هذا الحدث في نفسية ندى ويجعلها تراجع حساباتها ونفس الشيء يقوم به أحمد.

وبعد أن يتحقق حلم اللبنانيين ويتم تحرير جنوب لبنان من الصهاينة تعم الفرحة أهالي لبنان وتفتح السجون وهنا يختفي أحمد فجأة إثر الاحتفالات العارمة وتنطلق إثر ذلك ندى في البحث عن أحمد والبحث عن الحقيقة الوجودية وتحصل على منحة دراسية بفرنسا وتسافر إلى أوربا وتعيش تحت وطأة الصراع الداخلي إلى أن تشهر إسلامها عن قناعة ودون ضغط من أحد ورغم وفائها وحبها لأحمد إلا أنها تقبل بخطبة "حسان "صديق خطيبها السابق برضا من عائلة أحمد التي فقدت الأمل في العثور على ابنهم المفقود، تتوالى الأحداث ويعود أحمد إلى عائلته فاقدا للذاكرة جراء سقوطه في منحدر يوم الانتصار وتحرير لبنان واثر صدمة نفسية لاعتقاده أن صديقه يخونه مع خطيبته بعد أن وجد صورتها لديه، وهنا تجد ندى نفسها في مواجهة لقرار حاسم بين تنفيذ وعد الزواج لحسان بمباركة من الجميع أو استرجاع خطيبها السابق أحمد وتقديم يد العون له حتى يسترد عافيته وذاكرته، تنتهي الرواية باسترجاع أحمد لذاكرته وزواجه بندى وإشهار أبطال الرواية اليهوديين للإسلام.

كيف تجسد صراع الأنا والآخر في رواية (في قلبي أنثى عبرية)؟

الرواية مكتوبة على ثلاث أسس رئيسية تعبر عن تمازج ديني وتداخل عرقي في المجتمع العربي تجسدت فيه الديانات الثلاث (اليهودية والمسيحية والاسلام) تمر الساردة التونسية خولة حمدي من خلالهم وتصطحب شخصياتها الرئيسية إلى فسحة روائية متسامحة ومساحة محايدة لتطرح فيه مايدور في خلد اليهودي ازاء المسلم ومايراه المسلم في اليهودي وما يعتقده المسيحي عن المسلم واليهودي، دون أن تفلت منها بوصلتها السردية التي تحكمت بها طيلة اربعمائة وخمسة وثمانون صفحة، ويحسن بنا التنويه إلى أن الاشتغال على تيمة اليهود وعلى الشخصية اليهودية في الرواية العربية بات بمثابة "التابوهات" أو المحرماتالمسكوت عنها أدبيا وفنيا. فهناك سبه حالة شاملة من العمه والانصراف عن تناول اليهود عموما واليهود العرب خصوصا «وكأنهم غير موجودين، وكأنهم لم يكونوا في زمن غير بعيد في مناطق ومدن عربية عديدة، والأمر الثاني بأن الأعمال الروائية التي تناولتهم اقتصرت على العدو الصهيوني ذي الملمح الواحد والبعد الواحد »[4]، وهذا ما تجاوزته رواية "في قلبي أنثى عبرية" وقدمت اليهود العرب بوصفهم جزءا من النسيج الاجتماعي التونسي عبر توطئة تاريخية في أول الرواية وجانحة عبر المسار السردي للرواية إلى النقد الذاتي للمسلمين.

جدلية التعصب السياسي والتعايش الديني مع الآخر:

نأمل في هذا السياق ان تتصدر الرواية العربية منزلة لائقة شريطة أن يكرس كتابها جرعات كبيرة من الخلق والابداع، مع الابتعاد بتجاربهم ومحاولاتهم عن أطر تسجيل الاحداث الماضية والوقائع التاريخية والتركيز على أطر معايشة القضايا المتجددة بين اللحظة والأخرى. **وفي خضم هذا المسار الروائي العسير** «فإن عددا من نقاد الرواية لا يوافقون على استحالة الروائي الى صحفي، او مراسل حربي او كاتب مذكرات يومية الا انهم يأبون عليه ان يدع الاحداث تمر تحت ذقنه ليعيد تركيبها بعد انتقاء فاعليتها واستحالتها الى ركام من الذكريات».[5]

تعد "خوله حمدي " حالة خاصة من إرادة التعبير الوجداني عن ضرورة إخضاع فعل الكتابة للتلاطم الأزلي بعباب الأسئلة الرصينة دون انقطاع،إنها حالة تستدعي عدم الفصل بين القديم والجديد، بين الثابت والمتحول، بين الكائن والممكن،بين الزواج المختلط دينيا، كما بين الواقع والخيال. إنها رؤية فاحصة نافذة إلى قلب الوجود الإنساني. سعت في عملها هذا أن تجمع لنا المعلومات التي تحيط بالأطياف التي تتناولها واستطاعت في هذه الرواية الخديج في مضمار التبوهات الدينية أن تعمل على تصوير تعايش الديانات السماوية طيلة قرون بتسامح، وأوضحت كيف يمكن لليهودية أن تتزوج المسلم أو المسيحي فتزوجت سونيا اليهودية من سالم التونسي المسلم وبعد ذلك تزوجت جورج المسيحي اللبناني، وكذلك عائلة جاكوب اليهودي قامت برعاية ريما المسلمة كفرد من العائلة، والزواج المختلط دينيا بين المسلمين والمسيحيين واليهود كان عاديا في المجتمع العربي وتونس مثال لذلك، تقول ندى: «خالتي تزوجت من رجل مسلم، وخالي ارتبط بمسلمة .. ولا أظنهما حالتين استثنائيتين خاصة أن عدد اليهود في تونس ليس كبيرا، لذلك فإنهم يندمجون بسهولة في المجتمع ويتزوجون من المسلمين»[6] .

ويكاد يكون من الأمور المسلم بها أن الأعراف الاسلامية تسمح للمسلم بالزواج من كتابية، وإن كان يُمنع المرأة المسلمة من الزواج بغير المسلم، فاليهودية تشترط أن تكون الأم يهودية لأنها المسؤولة عن تربية الابناء ولا مانع من تزويج الفتاة اليهودية لابن ديانة أخرى.. وفي نهاية الرواية تزوجت ندى اليهودية الأصل بأحمد المسلم وتعلن ندى اليهودية إسلامها بالكنيسة حسب ما تقتضيه طقوس الاعترافات المسيحية على يد القس ميشال المسؤول عن الكنيسة والحامل لدكتوراه عن المسيح في القرآن، وتنتظر حفل غذاء السبت اليهودي المقدس لإخبار عائلتها بإسلامها.

شكل تنوع الديانات في الرواية الأرضية التي تجسدت على سطحها المتناقصات والصراعات بين الأنا المسلم والآخر اليهودي وهذا على مختلف الأبعاد فنجد البعد السياسي الذي أدى إلى تنامي التعصب والكراهية ما بين المقاومين الإسلاميين والصهاينة وانعكس أثره في الحياة الاجتماعية بين اليهود العرب والمسلمين، تقول الكاتبة متقمصة نفسية المقاوم المسلم أحمد وهو يستغرب من مساعدة ندى اليهودية له :« آنستي أنت يهودية أليس كذلك؟ إذن لماذا تساعدينا؟»[7] فتسرد لنا الكاتبة كيف تلقن يهودية مسلما درسا في الاخلاق وما يتبعه من أثر بالغ في قلب أحمد: «سرح أحمد قليلا وهو يحاول استيعاب كلماتها التي صدمته بقوة فلم يكن قد تقرب قبلا من اليهود العرب ولا عرف شيئا عن طريقة تفكيرهم والفكرة الطاغية لديه أنهم يضمرون العداء للمسلمين»[8].

و من الوقائع التي تطرقت لها الرواية حادثة الهجوم المسلح على كنيس يهودي بجزيرة "جربة" التونسية سنة 2002م ما أفضى إلى حقد دفين ورفض قاطع لكل ما هو مسلم، فنجد ندى بعد أن أعلنت اسلامها ترتدي الحجاب وتتحدى والدتها اليهودية بذلك فتقول واصفة الموقف وما يحدثه من تصادم بين الأنا المسلمة المتمثلة في ندى والآخر اليهودي المتمثل في والدتها : «رأيت نظرة غريبة لم أرها في عينيها من قبل، لعلها اختزال لحقد دفين على الإسلام وأهله، تحولت إلى وحشية في تلك اللحظة، رأيتها تنقض علي وتنتزع الحجاب بقوة، ألقته على الأرض وأخذت تمزقه بقدميها، ثم دفعتني لأسقط على الأرض وانهالت علي ركلا ورفسا ... جرتني من شعري بكلتا يديها وألقت بي في الشارع»[9].

وجاكوب لا يختلف كثيرا عن والدة ندى حينما ينفجر في وجهها وهي تدافع عن الإسلام: «هل تريدين إقناعنا بأن الإسلام دين سلام ومحبة؟ ألم تقم الفتوحات الإسلامية منذ القدم على سفك الدماء؟ الإسلام كان دينا دمويا منذ بداياته ولا يزال !»[10].

كما تطرقت الرواية لعرض جوانب عديدة لحياة اليهود العرب وتفاصيلهم اليومية ومناسباتهم الدينية كيوم السبت المقدس واجتماع العائلة، ووصف الملابس والأكل وتقاليد اليهود والمسيح يوم الزفاف، تتعرض الساردة للملابس وتبرز نقاط التشابه والتباين بين الحجاب الاسلامي والحجاب اليهودي حيث وضعت الساردة بطلتها اليهودية في مواجهة مع اخت احمد المسلمة: «لمحت فتاة تجلس وقد اطرقت في احتشام كانت تضع غطاء الرأس وترتدي ثوبا طويلا فضفاضا، أيقنت على الفور بأن الفتاة مسلمة فالفرق واضح بين الحجاب الاسلامي وغطاء الرأس اليهودي المعاصر، النساء

اليهوديات الملتزمات لم يعدن يرتدين أوشحة بل يفضلن القبعات والشعر المستعار الذي يمكنهن من الظهور في هندام لائق وعصري، دون أن يتنازلن عن قناعاتهن الدينية أو يجلبن إليهن الأنظار في المجتمعات المختلطة »[11].

يبدو الخروج النسبي عن اللباس الشرعي- العرفي سمة تشمل كل مجتمعات الديانات الثلاث في واقع مواجهة الألبسة التقليدية بالألبسة المعاصرة شكلا ولونا ومادة والتي تسمح بظهور مفاتن المرأة حتى ولو كانت متحجبة وفق معمار لباس شرعي مخترق بما هو معاصر.وفي هذا السياق تعلق الروائية قائلة. «وحتى من حافظن على الغطاء التقليدي منهن مثلما تفعل "ندى" فإنهن يتركن جزءا من مقدمة الشعر تطل من تحت الوشاح ويكشفن جزءا من العنق وفتحة الصدر وكذلك الأمر بالنسبة إلى الثياب فإن الفرق واضح فيها، حيث لا تهتم اليهوديات بطول أثوابهن فيكشفن سيقانهن ويضيقن على خصورهن بالأحزمة»، وهنا يجدر بنا أن نشير إلى أن «الأدب واحد من المصادر الرئيسية لإنشاء علم التاريخ وخاصة فيما يتعلق بتوصيف العادات والتقاليد والملابس والتوجهات الثقافية والسياسية والمذهبية التي تلتزمها مجموعة بشرية»[12].

الحيز المكاني مسرحا للهوية

يعد الفضاء مكونا من مكونات الخطاب الروائي ويدرك بوصفه بنيه ديناميكية ومفتوحة تتشابك وتتقاطع مع البنيات الأخرى، تؤثر فيها وتتأثر بها فتمنح النص الروائي شكله وهويته. من جهة أخرى يعتبرالمكان كذلك مسلمة أو حتمية لا يتخلص منها الشكل والتشكيل الروائيعلى الإطلاق ولا تفلت منها الشخصيات ولا الراوي ولا المؤلف ولا القارئ. إن المكان مثل الهواء يستغرق كل الأشيـاء والمخلوقات لا يتوقف حضوره على المستوى الحسي، إنه قوقعة الإنسان والشخصيات التي لا تنفك تحفر أخاديدها وانحفاراتها العميقة في كل الذوات الفاعلة منها والمنفعلة. المكان كون الكائن، حاضنة وجوده وتفاعلاته التحتية والفوقية، إنه حفريتنا العميقة، يحمينا **ونحميه، نتحصن به ضد الأعداء، نخترقه ويخترقنا على الدوام، سواء في الواقع أو الخيال، و إذا ما تعرض إلى الحروب أو التحولات الصعبة والعنيفة فإن الذات التي تقطنه سرعان ما تصاب هي كذلك بشروخ وتصدعات وتشنجات** [13].

يعتبر المكان أول حيز يسجل ردود أفعال الشخصيات المغتربة، وهو لا ينتظر ولا يمنح فرصة لمغتربيه أن يتأقلموا تدريجيا مع الوضع الجديد ولكنه يشعرهم بالنفي والتهميش والمجابهة حتى تذوب تلك الطبقة الجليدية القاسية فيذوبون نسبيا معه ومع تأثيثه المغاير الأبعاد.

وخير من عبر عن ردود الفعل المشار إليها "إدوارد سعيد" بعناية عنوان عمله "خارج المكان" لبيان سمة متأصلة في طبعه، وإبراز ماترتب على جغرافية الترحال من عدم الاستقرار في مكان معين. اتضح له، من خلال القسط الأوفر من حياته المبكرة، أنه وقع خطأ في ما يخالف طبيعة تكوينه. وهو ما جعله لا يؤدي دوره في الحياة على الوجه الأحسن. كان أحيانا يتصرف إزاء مايحدث له بالعناد والفخر. وأحيانا أخرى يتصرف حيالها بنوع من الخجل والتردد وفقدان الإرادة.

وغالبا ما كان يشعر أنه في غير مكانه «غير أن الغالب كان شعوري الدائم أني في غير مكاني"كان إدوارد يشعر، مع مر الزمن، أن "هويته مضطربة" أنا الأمريكي الذي يبطن هوية عربية أخرى لا أستمد منها أية قوة بل ثورتي الخجل والانزعاج. حيث أن هويته مهتزة بحكم انفصاله عن الواقع المعيش، وابتعاده عن منبت النبعة، وحنينه إلى أرومته العربية، وعدم سوغه أن يؤدي دور المواطن الأمريكي على أكمل وجه. ونتيجة هذا الاضطراب في حياته كان، دوما، يشعر أينما حل وارتحل بأنه إنسان لا وطن له، وأن جسده مجبر على الاكتواء بجمرة العذاب التي تزداد مع مر السنين توقدا وتوهجا».[14]

ورواية في قلبي أنثى عبرية كعدد كبير من الروايات العربية تطرقت إلى ثنائية شرق/ غرب واغتراب البطل المغترب وتجلى هذا عبر سفر ندى إلى فرنسا، ذلك الفضاء المكاني المتخم بالحرية وتعددية الفكر والرؤى،«ليس مستغربا أن يشكل الآخر –باريس- المنفى أو الحبس الكبير على حد تعبير ميشيل فوكو بحيث يرتبط الفضاء المكاني الذي يُنفى إليه الغرباء بالتهميش المرتبط بمشاهد الإقصاء التي تعبر عن الوضع الهامشي للجماعة الغريبة»[15] إلا أن بطلة روايتنا ليست مُقصاة أو مهمشة ولكنها اختارت هذا المنفى بإرادتها هربا إلى فضاء مغاير في رحلة للنسيان حيث نجحت ندى هناك في الانفتاح أكثر على الإسلام وقراءة القرآن والسيرة النبوية.

لقد تجلت لها رحمة الدين الاسلامي الحنيف وكأنها كانت بحاجة إلى وسط صحي يتقبل وجهات النظر ويسمح للعقل المتعطش للحقيقة بإعادة استكشاف الثوابت لذا قامت بزيارة جامع باريس الكبير وأقامت الصلاة مع صفوف المسلمات في حدث روحاني استثنائي يقدم المكان

الباريسي منتصرا للإسلام أكثر من أي مكان آخر بكل ما يحمله هذا المكان من دلالات حضارية وتاريخية «مما يميز حياة السارد تنقلاته عبر مدن ولغات وبيئات شديدة التنوع والاختلاف. وهذا ما جعله، عموما، يشعر بالنفي والضياع وعدم الاستقرار والكآبة (اكتئاب السفر الحضاري). ويشغل كل فضاء ارتاده مكانة خاصة في مخيلته ونفسيته بالنظر إلى طبيعة الظرفية والعلاقات والأجواء العائلية.»[16]

ولم يفت الكاتبة كسابقيها من الروائيين العرب تقديم الشرقي متخلفا حضاريا وقليل المعرفة بالفكر والفن ومنعدم التذوق لمعروضات المتاحف والمعالم الأثرية، ويظهر ذلك جليا بعد تعرف ندى على شريكتها في السكن وهي الفتاة الإيطالية أنابيلا، والتي تمثل الآخر الغربي وهي تصطحبها في زيارات للمتاحف الباريسية، لكن الساردة تصف ندى قائلة: « لم تكن المتاحف تستهويها، بل تصيبها بكثير من الملل أكثر من أي شيء آخر، لوحات تماثيل، أوان خزفية، قطع نقدية قديمة كل ذلك كان يحلو لأنابيلا»[17]، فأنا الشرقية المتمثلة في ندى ترفض أي شكل من أشكال التكيف مع الآخر الغربي المتمثل في فرنسا وأنابيلا إذ لاوجود لجسر يصل بين تونس وفرنسا، فالغربة بالنسبة لندى مجرد إقامة مؤقتة غير مشروطة بالتماهي مع رفاهيتها وذوق مجتمعها.

نجد كذلك البعد الحضاري في تشكل صورة الأنا المسلم في وعي الآخر المسيحي في الرواية حيث نجد بين طيات الرواية محاولات القس "ميشال" إقناع ندى بالعدول عن الاسلام والعودة الى اليهودية بالعقل من خلال ربط الإسلام بالتخلف يقول: « ما الذي وجدته عند المسلمين ولم تجديه عند أهلك اليهود؟ ألا ترين ما هم عليه من التخلف والتأخر عن بقية الأمم؟ لو كانوا على دين حق لكان الله وفقهم وسخر لهم الإمكانيات المادية. لكن دينهم لم يساعده إلا التقهقر والانغلاق ! أنظري إلى الشوارع المتسخة، وإلى الإدارات العامة التي تسودها الفوضى والفساد. انظري إلى الأخلاق والمعاملات في الشوارع، في وسائل النقل، وفي الأماكن العامة..»[18].

ويأتي نقد القس ميشال لوضع المرأة في الأسلام فيخاطبها قائلا: «وماذا عن وضعية المرأة في الإسلام؟ هل بعد دراستك وأصلك السامي، تريدين أن تصبحي شيئا لا قيمة له، يوضع وراء الأحجبة والأقمشة، يوارى عن العيون ولا يقول رأيه، كيف يقول رأيه وصوته لا يجب أن يسمع.. لأنه عورة ! أبعد كل سنين وتعليمك وسفرك إلى أوربا .. وكل ما قدمته إليك عائلتك لتنالي أعلى

المراتب تنزلين إلى هذا المستوى، ترثين نصف ما يرثه الرجل، شهادتك نصف شهادة؟ هل أصبحت نصف بشر؟»[19].

وعلى مستوى الصراع الديني نجد يهود الرواية لا يعلمون شيئا عن العبادات الاسلامية وتتفاجأ ندى اليهودية حينما تقتحم غرفة أحمد على حين غفلة وتجده يصلي مع عائلته: «صلاة المسلمين مختلفة عن صلاة النصارى التي تؤدى بصوت مرتفع وبطريقة غنائية، لكنها قريبة من صلاة اليهود، فعندنا يردد المصلون مقاطع من الكتاب المقدس بصوت خافت، أو في داخله دون أن يجهر بها»[20] هنا تتبلور الذات اليهودية وتقع في مقارنة بين الدعاء والصلوات بين اليهودية والآخر المسلم والمسيحي، فتنجذب البطلة لصلاة المسلمين لأنها الأقرب لصلاة اليهود وتطلب من ريما تعليمها إياها.

كما نلفي الحوارات والمناظرات الدينية تتكرر كثيرا بين أحمد المسلم وبين عائلة خطيبته اليهودية وزوج والدتها المسيحي، تبدو الساردة موضوعية ولا تنحاز لأي دين بل تجعل العقل والمنطق هما الحكمان اللذان ينهيان هذه المناقشات الحادة، ونجد هذا في الاسئلة المعقدة والمشككة في العقيدة الإسلامية التي تطرحها ندى على خطيبها المسلم ولكنه كان يثبت لهم مع تقدم اللقاءات أن الاختلاف العقائدي بين الديانة اليهودية والدين الإسلامي وقع بسبب تأخر تدوين الكتاب المقدس وأن التوراة قد وقع تحريفه.

يقول أحمد «التوراة والعهد القديم كان ينتقل شفويا من جيل إلى آخر، منذ خمسة آلاف سنة، ولم تقع كتابته وحفظه إلا في وقت متأخر، ولما لم يكن هناك عدد كبير من الأشخاص يحفظون الكتاب فقد كان من السهل على رجال الدين أن يغيروه ويحرفوا محتواه»[21] هذا التصادم الديني والصراع الفكري هو ما يذكي أحداث الرواية ويدفع بها إلى التصاعد فمن خلال هذه المناظرات وما يتخللها من أدلة حجاجية أكيدة تجتمع جميع الأنوات الروائية في مكان واحد من أجل إثبات ذاتها وإقصاء غيرها.

البعد النفسي للآخر اليهودي

تلعب الساردة على الوتر النفسي والفكري للشخصيات اليهودية وتركز على سلوكاتهم الاجتماعية فتظهر البطلة اليهودية ندى على قدر واسع من الثقافة والعلم، حيث تهيئ لها الكاتبة الجو الأمثل لقبول شخص مسلم رغم أنها تعيش في وسط يهودي متزمت ناقم على المسلمين وهذا

باطلاعها على كتب المستشرقين والمؤرخين الغربيين المنصفين لمآسي العرب والمسلمين، تسرد الكاتبة فتقول : «كانت ندى منهمكة في قراءة فصول روايتها الفرنسية (جولتي وحيدا عبر هذا القرن) التي يقص فيها "روجيه جارودي" سيرته الذاتية ابتداء من الحرب العالمية الاولى وتأرجحه بين الشيوعية والكاثولوكية مرورا بصراعاته السياسية والفكرية في منتصف القرن وصولا الى اسلامه في اوائل الثمانينيات»[22].

وفي جانب اخر نجدها تتصفح المكتبة وتقرأ العناوين في اهتمام وتلتهم الكتب الدينية بشراهة، «"التوراة، القرآن والعلم"، كتاب الدكتور "موريس بوكاي" إنه كتاب جيد أحسنت الاختيار، "موريس بوكاي" جراح فرنسي اعتنق الإسلام واهتم بدراسة الكتب المقدسة وقد وضع في كتابه هذا خلاصة أبحاثه، بخصوص علاقة كل من العهد القديم والعهد الجديد والقرآن بالعلم، وقد توصل إلى نتائج مذهلة، قلبت ندى الصفحات في تفكير ثم هزت رأسها: سآخذه إذن !» [23] .

يتبين لنا أن ندى وهي يهودية كانت تتمتع بقدر أوفر من الحرية والمناقشة مع أهلها في حياتها ومصيرها العاطفي والدراسي، ولكنها حينما تحول إلى الإسلام فإن الأمر ينقلب لتتحول في نظر عائلتها ولاسيما والدتها المتطرفة إلى آخر مسلم لا تشفع له صلة الدم والقرابة في شيء وكأنه شخص متطفل على العائلة ولا يحق له ممارسة شعائره الدينية، فتمارس عليها والدتها اليهودية صنوف الخناق والتعذيب النفسي لتعود إلى اليهودية، لكن ندى تتمسك بموقفها أكثر وتصر عليه وتجد عزاءها في مراسلة خطيبها المفقود أحمد وتخاطبه في كل رسالة بأخي في الله أحمد، «اخي في الله أحمد، الحمد لله أنا اليوم بخير أنت لا تعلم بما حصل معي في الأيام الماضية، قلت في رسالتي السابقة أن الأمور لا يمكن أن تسوء أكثر لكني أخطأت في تقديري لعلي استهنت بما في جراب الدتي من حيل وأسلحة مدمرة فتاكة»[24] إن ندى هنا في موقف وسط بين أناها القديمة الممثلة في الفتاة القوية صاحبة المكانة الأقرب لوالدتها وبين الأنا الجديدة التي تؤسس لذاتها كيانا مستقلا وخاصا، تعيش ندى صراع انفصال وانشقاق عن ديانتها وأسرتها وحياتها القديمة لتتوجه نحو الآخر هذه الضفة الأخرى التي لا تزال مجهولة ومرعبة بالنسبة إليها.

تعمل الدراسات الصورية على إبراز طبيعة العلاقة الإيديولوجية التي تجمع الأنا بالآخر وتحدد تفاعلهما إيجابا أو سلبا، وبيان ما يستضمره المتخيل الاجتماعي من قيم وتمثلات وتطلعات واستيهامات. وفي هذا السياق «يرى جون مارك مورا jean –Marc Moura "أن القوة المجددة

للصورة، أي أدبيتها، تكمن في الفجوة التي تفصلها عن مجموع التمثلات الاجتماعية (المتعرف عليها إذن) التي رسخها المجتمع. وعليه ليست الصورة هي إعادة إنتاج الآخر، وإنما هي إعادة خلقه.»[25]

وتعيد الساردة هنا الآخر بوصفها لشخصية اليهودي بالشح والشجع تقول «اليهود بصفة عامة يتصفون بالبخل والشح الشديدين إلا مع أبناء عقيدتهم. يكنزون المال ويضنون به على غيرهم ولا مكان عندهم للصدقات والتكافل الاجتماعي»[26]

كثيرا ما نجد شخصية مسطحة ذات صورة نمطية مكررة تلصق بفئة معينة تجعل الصفات المتناولة في الرواية ملازمة لهذه الشخصية وقد «اتخذت رواية الصراع العربي –الصهيوني اتجاها سرديا ركز على اليهودي الطماع المرابي الذي لايهمه في الحياة سوى جمع المال مهما كانت الوسائل المستخدمة، دونما عناء في بناء ما يلزم من تبريرات تقنع القارىء بفعالية هذه الشخصية داخل العالم الروائي»[27]. لكن الكاتبة استثنت جاكوب اليهودي من صفات اليهود النمطية المسطحة فهو يتمتع بحس إنساني رحيم ويتصدق بكمية كبيرة من ملابس الأطفال إلى العائلات الفقيرة بعد تأكده من جودة هذه الألبسة.

وخلافا للروايات والمسرحيات العربية والعالمية التي تتناول اليهود بصورة مكررة أقرب منها إلى الكارتونية أو الخيالية، نجد أن رواية "في قلبي أنثى عبرية" تقدم الآخر اليهودي والمسيحي أكثر تسامحا فهم يزوجون بناتهم لغير أبناء دينهم، ويقدمون المساعدة لأي مصاب حتى يتجاوز أزمته والكاتبة تكرس فكرة الانتصار للأنا الديني الإسلامي على حساب الاخر اليهودي والمسيحي ويظهر هذا جليا في تطلع الفتاة الصغيرة ريما إلى إنقاذ بابا جاكوب من النار، ومحاولات ندى بكل الوسائل من أجل إسلام عائلتها خوفا عليهم من نار جهنم.

يبدو الآخر لازم من لوازم الأنا، والعكس صحيح، فهما، وإن تباعدا وتنابذا، يتفاعلان، فيما بينهما سلبا أو إيجابا بالنظر إلى علائق القوى التي تمنح الغلبة لطرف على حساب الطرف الآخر. «وغالبا ما ينظر، بالاحتكام إلى التجارب التاريخية، إلى الآخر بصفته عدوا يشكل، على الدوام، تهديدا للهوية الذاتية وتظل العداوة محتملة حتى في حال السلم بين الطرفين. وفي هذا الإطار نورد مثالا عن النزعة الأوربية التي تتوخى، من خلال بناء المجموعة الأوربية، استعادة عداوات تقليدية، ومنها عداوة الشرق.»[28]

وهذا ما لمسناه في الرواية عبر الصراع الذهني الذي تأجج وتحول إلى صراع حقيقي يعيد حروب التاريخ بطرق حديثة، مما دفع بالشخصيات الرئيسية إلى الوقوف على جبهتين متضادتين.

«وبقدر ما تنظر الأنا إلى الآخر بصفته عدوا، بقدر ما تبحث عن أصدقاء محتملين لتقوية عود المنافسة سعيا إلى كسب الرهان المنشود. وهكذا تميز الوحدة بين الصديق والعدو أي بين من يساند الأنا وينتمي إلى حلفها، ومن يعارضها ويخرج عن ولائها. ومن ثمة يتضح أن الأنا، سواء أكانت محايدة أم متنمية إلى تكتل، تفترض وجود عدو محتمل يهدد كيانها وهويتها باستمرار »[29].

ومن جهة أخرى فهي لا تنفك متيقظة لكل الطوارئ المحتملة تحذرها وتعد لها ما استطاع من القوة والوسائل الدفاعية والهجومية بل هي أيضا«حريصة على صيانة مقوماتها ومكاسبها وما يحفزها من جهة ثانية، على اعتبار الآخر غريبا ومختلفا ينبغي الاحتراس منه تفاديا لأي خطر يمكن أن يصدر عنه.»[30] وهذا ما وقفنا عليه من تمركز الذات حول نفسها في الرواية ونفيها للآخر، رغم حتمية التعايش مع هذا الآخر.

رواية (في قلبي أنثى عبرية) رواية تحمل العديد من القضايا المرتبطة بسرد الآخر،وما طرحته في هذه الصفحات كان عبارة عن خطوط عريضة لما تحويه هذه الرواية، ولازلت الرواية تحت البحث والاشتغال لنكشف عبرها الجدلية الأزلية بين الذات والآخر .

الهوامش:

[1]مثال ذلك كتاب: الطيب صالح عبقري الرواية العربية، ط1 ـ1976،دار العودة، بيروت، حيث تناول عددا لا بأس به من المقالات التي تثني على رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" ذات الرؤية الانسانية والحضارية.

[2]فتحي بوخالفة، التجربة الروائية المغاربية، دار عالم الكتاب الحديث، 2010، الأردن، ص 154

[3]فريد الزاهي ،الصورة والآخر، ص 97

[4]انظر :صلاح صالح، سرد الآخر، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط1، 2003 م، ص 198 (بتصرف)

[5]محمد صالح الجابري، دراسات في الأدب التونسي، الدار العربية للكتاب، تونس، ص 11

[6]د.خولة حمدي، رواية في قلبي أنثى عبرية، دار كيان للنشر والتوزيع، مصر ،ط 10، 2013 ، ص34

[7] الرواية ، ص 31

[8] الرواية، ص 31

[9] الرواية، ص :91

[10]الرواية، ص278

[11] الرواية،ص52.

[12]صلاح صالح، سرد الآخر، ص 205

[13] عيسى بريهمات ،رسالة دكتوراه :الحرب في الرواية العربية ،ص356.

[14]محمد الداهي، صورة الأنا والآخر، سلسلة السرد العربي، 2013، القاهرة ـ مصر، ص ص 262 ،263

[15]نهال مهيدات، الآخر في الرواية النسوية العربية، عالم الكتب الحديث، ط1 ،2008، ص :124

[16]محمد الداهي ،المرجع السابق، ص 280.

[17]الرواية، ص :218

[18] الرواية ،ص238.

[19]الرواية، ص :238

[20]الرواية، ص91

[21]الرواية، ص :105

[22] الرواية، ص :50

[23]الرواية، ص :191

[24]الرواية، ص :136

[25]محمد الداهي، مرجع سابق ،صص 8، 9

[26]الرواية، ص :98

[27]انظر: د.عبد القادر شرشار، خصائص الخطاب الأدبي في رواية الصراع العربي الصهيوني ،بيروت لبنان، ط1 2005، ص106

[28]محمد الداهي، ص 11.

[29] محمد الداهي،صورة الأنا والآخر،ص12

[30]محمد الداهي، صورة الأنا والآخر، ص 12.